

الفصل السابع

نواقض التوحيد والإيمان

نواقض التوحيد والإيمان

أولاً: الشرك:

إن الحديث عن التوحيد يستلزم الحديث عما يناقضه من الشرك لأنه كما قيل: بضدها تتميز الأشياء.

والشرك: هو أن تجعل لله نداً أو شريكاً في ربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه وصفاته وهو المبطل للأعمال والممانع لقبولها، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

وحده، أن يصرف العبد نوعاً من أنواع العبادة لغير الله فكل اعتقاد أو قول، أو عمل ثبت أنه مأمور به من الشارع فصرفه لله وحده توحيد وإيمان وإخلاص، وصرفه لغيره شرك وكفر^(١).

فحقيقة الشرك بالله، أن يُعبد المخلوق كما يُعبد الله أو يُعظم كما يُعظم الله أو يصرف له نوع من خصائص الربوبية والألوهية.

ولقد وردت النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة في التحذير من الشرك وبيان خطره، وإنه أعظم ذنب عصي الله به وأنه لا أضل من فاعله وأنه مخلد في النار أبداً لا نصير له ولا حميم ولا شفيع يطاع، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

(١) القول السديد في مقاصد التوحيد ص ٣١.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

إن الشرك هو الذنب الوحيد المتميز عن بقية الذنوب بعدم المغفرة لصاحبه إذا مات ولم يتب منه، وأما بقية الذنوب فإن صاحبها إن مات ولم يتب منها فإنه تحت مشيئة الله إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له.

إن الذنوب التي دون الشرك جعل الله لمغفرتها أسباباً كثيرة كالحسنات الماحية والمصائب المكفرة في الدنيا والبرزخ ويوم القيامة وكدعاء المؤمنين بعضهم لبعض وشفاعة الشافعين، ومن دون ذلك كله رحمته التي خص بها أهل الإيمان والتوحيد، وهذا بخلاف الشرك فإن المشرك سدّ على نفسه أبواب المغفرة، وأغلق دونه أبواب الرحمة فلا تنفعه الطاعات دون التوحيد، ولا تفيده الشدائد والمحن شيئاً.

إن الشرك بالله تمجه الفطر السليمة، ولقد بقي البشر بعد آدم قروناً طويلة وهم أمة واحدة على التوحيد والهدى، ثم أدخلت عليهم الشياطين الشرور المتنوعة بطرق كثيرة؛ فكان قوم نوح قد مات منهم أناس صالحون فحزنوا عليهم فجاءهم إبليس وأمرهم أن يصوروا تماثيلهم ليتذكروا أحوالهم، فكان هذا باب الشر العظيم، فلما مات الذين صوروهم لهذا المعنى خلف من بعدهم خلف قلّ فيهم العلم واستفزه الشيطان وأغواهم حتى أوقعهم في الشرك، ثم بعث الله فيهم نوحاً عليه السلام يعرفونه ويعرفون صدقه وأمانته وكمال أخلاقه، فقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩] إلا أنهم عصوه وما آمن معه إلا قليل. إن الله تعالى خلق الناس على فطرة التوحيد ثم استطاعت الشياطين أن تميل بالناس وتنحرف بهم نحو الوثنية المظلمة والشرك العظيم، قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣]. أي إن الناس كانوا على ملة آدم عليه السلام حتى عبدوا الأصنام فبعث الله إليهم نوحاً عليه السلام فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض^(١).

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٢٥٠).

إن هذه الأمة الإسلامية التي رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً، عليها أن تحرص على تحقيق التوحيد ومحاربة الشرك، لأنها تعلم علم اليقين أن من شروط التمكين لها، تحقيق التوحيد وتهذيبه، وتصفيته من الشرك الأكبر والأصغر، ومن البدع القولية والاعتقادية، والبدع الفعلية والعملية، ومن المعاصي، وذلك بكمال الإخلاص لله في الأقوال والأفعال والإرادات، وبالسلامة من الشرك الأكبر المناقض لأصل التوحيد، ومن الشرك الأصغر المنافي لكمال وبالسلامة من البدع^(١)، وعليها أن تحارب شرك القبور، وكذلك شرك القوانين الوضعية المخالفة للشريعة الإسلامية، وعليها أن تدعو إلى إفراة العبودية لله وحده في جميع شئون الحياة الإنسانية ولأن حالها ومقالها قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦١، ١٦٢].

ثانياً: أنواع الشرك: ينقسم الشرع إلى نوعين: أكبر وأصغر.

١ - الشرك الأكبر: يخرج صاحبه من ملة الإسلام، ويوجب له الخلود في جهنم ويحرم عليه الجنة، هذا إذا مات على الشرك، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، والشرك الأكبر أنواع منها:

أ - شرك الدعاء: وهو اللجوء إلى غير الله ودعائه وقصده، قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]. فهم يوحدون الله في حال الضيق والشدة وإذا نجاهم أشركوا ودعوا غيره.

ب - شرك النية والإرادة والقصد: وهو أن يعمل العمل مما يراد به وجه الله عز وجل يعمل له غير الله ويقصد به مراداً آخر، فهذا شرك أكبر، قال عز وجل: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسِرُونَ ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥ - ١٦]. قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ۝ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ

(١) الشيخ عبد الرحمن السعدي وجهوده.

مَشْكُورًا ﴿ كَلَّا نُمَدِّدُ هُوْلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾

[الإسراء: ١٨ - ٢٠].

ج- شرك الطاعة: وهو طاعة الأحرار والرهبان وغيرهم من البشر والعلماء والسلطين والأمراء في تحريم ما أحل الله أو إباحة ما حرم الله، قال تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١]، وعن عدي بن حاتم - رضي الله عنه - أنه لما بلغته دعوة رسول الله فرّ إلى الشام وكان تنصر في الجاهلية، فأسرت أخته وجماعة من قومه ثم من رسول الله ﷺ على أخته وأعطاهها فرجعت إلى أخيها فرغبت في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ فتقدم عدي إلى المدينة وكان رئيسًا في قومه طى وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فتحدث الناس بقدومه فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدي صليب من فضة وهو يقرأ هذه الآية ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم فقال: بلى، إنهم حرّموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم، وقال بها رسول الله ﷺ: يا عدي ما تقول؟ أضرّك أن يقال: الله أكبر؟ فهل تعلم شيئًا أكبر من الله؟ ما يضرّك؟ أضرّك أن يقال: لا إله إلا الله فهل تعلم إلها غير الله؟ ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق^(١).

د - شرك المحبة: بأن يصرف المحبة لغير الله تعالى مما يجب أن يكون لله، ومن أدلته قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقوله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار». وقد اهتم القرآن الكريم بضرب الأمثال للتفنير من حالة المشرك وهذه بعض الأمثال:

مثل المشرك بالساقط من السماء:

قال تعالى: ﴿ خُنْفَاءَ اللَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤٨).

الطَيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿[الحج: ٣١].

يحث الله سبحانه عباده على إخلاص التوحيد وإفراده بالطاعة والعبادة دون الأوثان ويذكر قبح الشرك وبطلانه بأوضح الأمثلة، لأن من يشرك بالله شيئاً من دونه فمثله من بعده عن الهدى وإصابة الحق وهلاكه وذهابه عن ربه مثل من خرّ من السماء فتخطفه الطير فهلك، أو هوت به العواصف في مكان بعيد، فهذا مثل ضربه الله لمن أشرك بالله في بعده من الهدى وهلاكه^(١).

مثل المشرك بالحيران في الأرض:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرْثِدْ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١].

هذا مثل ضربه الله للآلهة ومن يدعو إليها وللدعاة الذين يدعون إلى الله كمثل رجل ضل الطريق إذ ناداه مناد: يا فلان ابن فلان، هلم إلى الطريق، وله أصحاب يدعونه: يا فلان، هلم إلى الطريق، فإن اتبع الداعي الأول انطلق به حتى يلقيه في الهلكة، وإن أجاب من يدعو إلى الهدى اهتدى إلى الطريق^(٢).

مثل المشرك بالعبد المملوك لجماعة كثيرين:

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

هذا مثل ضربه الله سبحانه وتعالى للمشرك والموحد، فالمشرك بمنزلة عبد يملكه جماعة متنازعون مختلفون متشاحنون، والرجل المشاكس الضيق الخلق، فالمشرك لما كان يعبد آلهة شتى شبه بعبد يملكه جماعة متنافسون في خدمته لا يمكنه أن يبلغ رضاهم أجمعين، والموحد لما كان يعبد الله وحده فمثله كمثل عبد لرجل واحد قد سلم له وعلم مقاصده وعرف الطريق إلى رضاه، فهو في راحة من تشاحن الخلقاء فيه، بل هو سالم

(١) تفسير الطبري (١٧/ ١٥٥)، الشرك في القديم والحديث أبو بكر محمد زكريا (٢/ ١٣٧٠).

(٢) تفسير الطبري (٧/ ٢٣٦).

لمالكه من غير تنازع فيه مع رأفة مالكه به ورحمته له وشفقته عليه وإحسانه إليه وتولية لمصالحه، فهل يستوي هذان العبدان؟ وهذا من أبلغ الأمثال فإن الخالص للملك واحد يستحق من معونته وإحسانه والتفاتة إليه وقيامه بمصالحه ما لا يستحقه صاحب الشركاء المتشاكسين، الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون»^(١).

٢- **الشرك الأصغر:** وهذا النوع لا يخرج صاحبه من الملة ولكنه ينقص من توحيده، وهو وسيلة للشرك الأكبر، وهو ينقسم إلى نوعين: ظاهر وخفي.

أ - **فالظاهر:** مكون من ألفاظ قولية وأفعال عملية، فمن الألفاظ الحلف بغير الله، وقول الإنسان: لولا الله وأنت أو هذا من الله ومنك، ما شاء الله وشئت، فإن هذا يقتضي المساواة بين الله وبين العبد، وهذا محال، ولكن الصحيح ألا يحلف إلا بالله عز وجل، وأن يقول: لولا الله ثم أنت أو هذا من الله ثم منك وما شاء الله ثم شئت.

ومن الأفعال: لبس الحلقة والخيط وتعليق التهائم خشية العين، أو الجن، فمن فعل ذلك معتقداً أنها سبب يستدفع بها البلاء وأن الدافع للبلاء هو الله وحده فقد أشرك شركاً أصغر، وإذا فعل ذلك معتقداً أن هذه الأشياء تدفع البلاء بعد نزوله أو تمنعه قبل حلوله فقد أشرك شركاً أكبر حيث أعتقد شريكاً مع الله في الخلق والتدبير^(٢).

ب - **وأما الخفي من الشرك الأصغر:** فهو شرك الإرادات، والمقاصد والنيات، وذلك مثل الرياء، والسمعة، ومثال ذلك أن يعمل المسلم عملاً الأصل فيه أنه لله تعالى، ثم بعد ذلك يدخل فيه شيء من الرياء أو السمعة، فيريد من الناس الثناء عليه، كأن يقرأ مسلم القرآن لله تعالى وتقرباً له، وعندما يرى الناس تنصت له يلحن في صوته ابتغاء الثناء عليه، أو يتصدق إنسان بهال لكي يمدح ويشنى عليه، أو يحسن الرجل صلاته التي يتقرب بها إلى الله لما يرى من نظر الناس إليه، وغير ذلك من الأعمال والعبادات التي تصرف الله تعالى، وإلا لو صرف ابتداءً لغير الله لأصبح ذلك شركاً أكبر يخرج من الملة، ولكن بعد البدء فيها يدخل عليه حب المدح والثناء على فعله وعبادته. وعاقبة الرياء الذي يخالط

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٨٧).

(٢) عقيدة أهل السنة والجماعة للقطاني ص ١٤٢.

العمل هو إبطال أجر وثواب هذا العمل، قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال رسول الله ﷺ: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، فسئل عنه فقال: الرياء»^(١).

إن الشرك في الإرادات والنيات فذلك البحر الذي لا ساحل له، وقل من ينجو منه، فمن أراد بعمله غير وجه الله، ونوى به شيئاً غير التقرب إليه وطلب الجزاء منه فقد أشرك في نيته وإرادته، والإخلاص: أن يخلص لله في أفعاله وأقواله وإرادته ونيته، وهذه هي الحنيفية، ملة إبراهيم التي أمر الله بها عباده كلهم ولا يقبل من أحد غيرها وهي حقيقة الإسلام وهي ملة إبراهيم عليه السلام^(٢).

والعبد المؤمن يخشى على نفسه من الرياء وأن تصير أعماله هباءً منثوراً، فقد قال الله تعالى عن أقوام: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]. وقال الفضيل في هذه الآية: «وَبَدَا لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ» قال: عملوا أعمالاً وحسبوا أنها حسنات فإذا هي سيئات^(٣).

وقريب من هذا أن يعمل الإنسان ذنباً يحتقره، ويستهون به فيكون هو سبب هلاكه، كما قال تعالى: ﴿وَتَحْسِبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥]. وقال بعض الصحابة، إنكم تعملون أعمالاً هي في أعينكم أدق من الشعر، كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات^(٤).

وأصعب من هذا من زين له سوء عمله فرآه حسناً، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤ - ١٠٥].

قال سفيان بن عيينة: لما حضرت محمد بن المنكدر الوفاة جزع فدعوا له أبا حازم فجاء فقال له ابن المنكدر: إن الله يقول: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾،

(١) مسند الإمام أحمد (٤٢٨/٥).

(٢) العقيدة الصافية ص ٤٠٦.

(٣) المحجة في سير الدُّلجة لابن رجب الحنبلي ص ٩٠.

(٤) البخاري، ك الرقائق (١٨٧/٧).

وأخاف أن يبدو لي من الله ما لم أكن أحتسب، فجعلنا يبكيان جميعاً، فقال له أهله: دعوناك لتخفف عليه فزدته فأخبرهم بما قال^(١)، وقال الفضيل بن عياض: أخبرت عن سليمان التيمي أنه قيل له: أنت أنت ومن مثلك؟ فقال: مه، لا تقولوا هذا، لا أدري ما يبدو لي من الله، سمعت الله يقول: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾^(٢). وكان سفيان الثوري يقول عند هذه الآية: ويل لأهل الرياء من هذه الآية، وهذا كما في حديث الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار، العالم، والمتصدق، والمجاهد^(٣).

وكذلك من عمل أعمالاً صالحة وكانت عليه مظالم فهو يظن أن أعماله تنجيه فيبدو له ما لم يكن يحتسب، فيقتسم الغرماء أعماله كلها ثم يفضل لهم فضل فيطرح من سيئاتهم عليه ثم يطرح في النار^(٤).

وقد يناقش الحساب فيطلب منه شكر النعم فتقوم أصغر النعم فتستوعب أعماله كلها وتبقى بقية النعم فيطالب بشكرها فيعذب، ولهذا قال ﷺ: «من نوقش الحساب عُدَّب أو هلك»^(٥).

وقد يكون له سيئات تحبط بعض أعماله أو أعمال جوارحه سوى التوحيد، فيدخل النار وقد يحبط العمل بأفة من رياء خفي أو عجب به ونحو ذلك ولا يشعر به صاحبه^(٦). قال ضيغم العابد: إن لم تأت الآخرة المؤمن بالسرور لقد اجتمع عليه الأمران، هم الدنيا وشقاء الآخرة، ف قيل له: كيف لا تأتية الآخرة بالسرور وهو يتعب في دار الدنيا ويدأب؟ فقال: كيف بالقبول، كيف بالسلامة؟ ثم قال: كم من رجل يرى أنه قد أصلح عمله يُجمع ذلك كله يوم القيامة ثم يضرب به وجهه ومن هنا كان بعض الصالحين يقلقون من هذه الآية ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

ولذلك فالمسلم لا يثق بكثرة العمل، لأنه لا يدري يقبل منه أم لا، ولا يأمن ذنوبه

(١) صفوة الصفوة (٢/ ١٦٧) ابن الجوزي.

(٢) المحجة في سيرة الدجلة لابن رجب ص ٩٢.

(٣) المصدر نفسه ص ٩٣.

(٤) المصدر نفسه ص ٩٤.

(٥) البخاري، ك الرقائق (٧/ ١٩٧).

(٦) المحجة في سيرة الدجلة ص ٩٦.

فإنه لا يدري هل كَفَرَتْ عنه أم لا؟ لأن الأعمال مُغَيَّبَةٌ عن العبيد لا يدرون ما الله صانع بهم^(١).

ومن تأمل هذا حق التأمل أوجب له الخوف والخشية والقلق، فإن ابن آدم متعرض لأهوال عظيمة من الموت والقبر وأهوال البرزخ وأهوال الموقف، كالصراط والميزان، وأعظم من ذلك الوقوف بين يدي الله عز وجل ودخول النار، ويخشى على نفسه الخلود فيها بأن يُسلب إيمانه عند الموت، ولم يأمن المؤمن شيئاً من هذه الأمور، قال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

قال الشاعر:

لَمَّا خُلِقُوا لَمَّا غَفَلُوا وَنَامُوا	أما والله لو علم الأنام
عيون قلوبهم تاهوا وهاموا	لقد خلقوا المالو أبصرته
وتويع وأهوال عظام	مات ثم قبر ثم حشر
فصلوا من مخافته وصاموا	ليوم الحشر قد عملت رجال
كأهل الكهف أيقاظ نيام ^(٢)	ونحن إذا نهينا أو أمرنا

٣ - الفرق بين الشرك الأكبر والأصغر:

- الشرك الأكبر يخرج صاحبه من الإسلام بخلاف الشرك الأصغر.
- الشرك الأكبر يحبط جميع الأعمال، أما الشرك الأصغر فإنه يحبط العمل الذي خالطه فقط.

- الشرك الأكبر يبيح الدم والمال، والشرك الأصغر ليس كذلك.
- الشرك الأكبر يخلد صاحبه في النار، أما الشرك الأصغر فلا يخلد صاحبه في النار وإن دخلها.

- الشرك الأكبر يوجب المعادة وقطع الموالاة فلا يجوز موالاته مهما كانت قرابته، أما الشرك الأصغر فلا يقطع الموالاة على الإطلاق، وإنما يوالى بقدر ما لديه من التوحيد

(١) المحبة في سير الدلجة ص ٩٨.

(٢) المصدر نفسه ص ١٠١.

ويعادى بحسب ما فيه من الشرك^(١).

٤- آثار الشرك:

إن الشرك الذي يقع فيه الإنسان له آثاره الوبيلة في دنياه وآخرته، سواء أكان الواقع فيه فرداً أم جماعة فمن تلك الآثار:

- إطفاء نور الفطرة.
- القضاء على منازع النفس الرفيعة.
- القضاء على عزة النفس ووقوع صاحبه في العبودية الذليلة.
- تمزيق وحدة النفس البشرية.
- إحباط العمل^(٢).

ثانياً: الكفر:

أصل الكفر تغطية الشيء، وسمي الليل كافراً لتغطيته كل شيء^(٣)، وذكر أهل التفسير أن الكفر في القرآن على خمسة أوجه:

أحدها الكفر بالتوحيد ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦].

والثاني: كفر نعمة ومنه قوله تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].
والثالث: التبرؤ ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، أي يتبرأ بعضكم من بعض.

والرابع: الجحود ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩].
والخامس: التغطية ومنه قوله تعالى: ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ﴾ [الحديد: ٢٠]. يريد الزراع الذين يغطون الحب^(٤).

(١) عقيدة أهل السنة والجماعة ص ١٤٣.

(٢) فقه النصر والتمكين ص ٢٠٣.

(٣) التبيان لعلاقة العمل بمسمى الإيمان، علي بن أحمد بن سوف ص ٢٤٩.

(٤) نزهة الأعين النواظر لابن الجوزي (٢/ ١١٩، ١٢٠).

وأما الكفر اصطلاحًا: فهو الإنكار المتعمد لما جاء به محمد ﷺ أو بعض ما جاء به محمد مما علم من دينه بالضرورة^(١).

والكفر والإيمان ضدان متى ثبت أحدهما ثبتاً كاملاً انتفى الآخر^(٢).

والكفر ليس حقيقة واحدة ولا هو شعبة واحدة، فليس ينحصر في التكذيب أو الاعتقاد القلبي، بل هو شعب متعددة ومراتب متفاوتة، كما أن ما يقابله وهو الإيمان شعب متعددة كما سبق ذكره، ويقع الكفر بالتكذيب وبالجحود وبالإعراض وبالتكبر عن أوامر الله^(٣).

وكما أن الإيمان ذو شعب دل عليها حديث النبي ﷺ المتفق عليه في قوله ﷺ: الإيمان بضع وسبعون شعبة: أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان^(٤).
فكذلك الكفر له شعب أيضاً.

أنواع الكفر: ينقسم الكفر إلى نوعين:

١ - كفر أكبر يناقض الإيمان ويوجب الخروج من الملة والخلود في النار وهو على خمسة أنواع:

أ- كفر التكذيب: وهو اعتقاد كذب الرسل وهذا قليل جداً لأن الله أيد رسله بالآيات وأعطاهم من المعجزات ما يقوم به دليلاً على صدقهم وقيام الحجة على أممهم، قال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وقال لرسوله ﷺ: ﴿فَاتَّهَمُوا لَا يُكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَحْدُونَ﴾ [الأأنعام: ٣٣]، وإنما يلجأ بعض الكفار إلى التكذيب بالرسول من ألسنتهم فقط وليس من قلوبهم.

ب - الإباء والاستكبار والمسمى بالكفر الإبليسي فإنه إنما جحد أمر الله وأنكر

(١) عقيدة أهل السنة والجماعة ص ٤٩.

(٢) الإرشاد إلى معرفة الأحكام للسعدي ص ٢٠٣، ٢٠٤.

(٣) التبيان لعلاقة العمل بمسمى الإيمان ص ٢٥٦.

(٤) البخاري رقم ٩، مسلم رقم ٣٥.

عنادًا واستكبارًا، وهذا النوع يقع من معظم الكفار حيث يقولون: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ [يس: ١٥]، وكما يقول قوم فرعون: ﴿أَنْتُمْ لَيْسْتُمْ إِلَّا أَنْفُسُكُمْ فَانْهَاجُوا سُبُلَكُمْ فَمَنْ أَكْفَرُ مِنْكُمْ إِنْ جَاءَ بِكُمْ آيَاتُنَا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [المؤمنون: ٤٧].

ج - كفر الإعراض: وذلك بأن يعرض بسمعه وقلبه عن الرسول ﷺ لا يصدقه ولا يكذبه ولا يواليه ولا يعاديه ولا يصغى له ولا إلى ما جاء به البتة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣].

د - كفر الشك: بأن لا يجوز بصدق النبي ﷺ ولا يكذبه، وإنما يشك في ذلك أو يشك في القيامة، ومن هذا الكفر كفر صاحب الجنة والبستان الذي غره ما عنده من الرزق، وفقد الإيمان بالله واليوم الآخر، قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۖ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِمَّنْهَا مُنْقَلَبًا ۖ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ۖ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: ٣٥-٣٨] فلقد عبر عن عقيدته في اليوم الآخر بقوله: ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي﴾ هكذا على سبيل الشك وعدم اليقين فوقع في الكفر كما قال له صاحبه: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ﴾ وهذا هو مصير أصحاب القلوب المريضة والعياذ بالله.

هـ - كفر النفاق: وهو إظهار الإيمان باللسان وإخفاء الكفر والتكذيب في القلب وهو النفاق الأكبر وهذا النوع من أشد أنواع الكفر خطرًا على الإسلام والمسلمين، وأصحاب هذا النفاق يتغلغلون في صفوف المسلمين ويحاولون تفريق الكلمة وتمزيق الأمة ودليله قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ۖ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٨، ٩].

٢ - كفر أصغر: وهذا لا ينافي أصل الإيمان ولا يذهب به بالكلية وإنما ينقص كماله ويصبح الموصوف به مذمومًا شرعًا وإن بقيت أحكام الإسلام تجري عليه لبقاء أصل

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٤٦).

(٢) العقيدة الصافية ص ٣٩٧.

الإيمان به^(١)، وهو كل ذنب ورد تسميته في الكتاب والسنة كفرًا، وهو لا يصل إلى حد الكفر الأكبر، وهذا النوع يوجب استحقاق الوعيد دون الخلود في النار، ومثال ذلك قوله ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»^(٢). فَإِنَّ الْكُفْرَ هُنَا مَعْنَاهُ الْكُفْرُ الْأَصْغَرُ الَّذِي لَا يَخْرُجُ مِنَ الْمِلَّةِ بِدَلِيلٍ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩] فقد سباهم الله مؤمنين مع اقتتالهم^(٣).

٣- إطلاق حكم الكفر: ليس كل من عمل عملاً أو قال قولاً كفرًا يكون كافرًا إلا إذا وجدت الشروط في حق ذلك المعين، وانتفت الموانع التي تمنع استحقاقه لذلك الحكم، فقد يقول الإنسان الكفر أو يعمل به باجتهاد أو خطأ ولا يكفر به، وذلك لما يترتب على ذلك من الأحكام الشرعية؛ كإهدار دمه وزوال عصمة ماله وأولاده وتحريم زوجته عليه وعدم حل ذبيحته وعدم جواز تغسيله والصلاة عليه ودفنه في مقابر المسلمين وعدم جواز الاستغفار له بعد موته، ولورود الوعيد الشديد على من أطلق كلمة الكفر على مسلم ولم يكن كذلك ففي الحديث: من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما^(٤).

٤ - شروط التكفير:

بين علماء المسلمين بأن الشخص المعين لا يكون كافرًا حلال الدم والمال إلا إذا:

- توافرت فيه شروط عدة.

- وانتفت عنه موانع.

حينئذ يجوز الحكم عليه بالكفر، أما إذا انتفى أي شرط أو وجد أي مانع فلا يجوز أن يحكم عليه بالكفر، وليس معنى هذا إعفائه من العقوبة تمامًا، بل يعاقب على حسب حاله، إنما الممنوع الحكم عليه بالكفر لا مطلق العقوبة.

(١) عقيدة أهل السنة والجماعة ص ٥١.

(٢) البخاري رقم ٦٠٤٤.

(٣) عقيدة أهل السنة والجماعة ص ٥١.

(٤) البخاري رقم ٦١٠٣.

- شروط التكفير: هناك شروط ثلاثة لا بد من اجتماعها بمن عمل عملاً يستحق عليه الوعيد كاللعن والكفر وإذا سقط شرط منها فيمتنع لعن الشخص وتكفيره.

أ - العلم: فالله سبحانه وتعالى لم يشرع العقوبة قبل إقامة الحجة.

- قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

- قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

- قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ [القصص: ٥٩].

- قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ قالوا بلى قد جاءنا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴿[الملك ٨، ٩].

- قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ [طه: ١٣٤].

وهذه النصوص الربانية تفيد أن الله تعالى لا يؤاخذ عباده إلا بعد قيام الحجة عليهم، وعلمهم بالحق والصواب^(١)، وقد ثبت في نصوص أخرى أن الله لا يؤاخذ جاهلاً، ولو كان جهله بمسائل في العقيدة، فقد قال ﷺ: «كان رجل يسرف على نفسه، ولما حضره الموت قال لبيته: إذا أنا مت فأحرقوني، ثم اطحنوني، ثم ذروني في الريح، فوالله لئن قدر عليّ ليعذبني عذاباً ما عذبه أحد، فلما مات فعل به ذلك، فأمر الأرض فقال: «اجمعي ما فيك منه، ففعلت، فإذا هو قائم، فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رب خشيتك، فغفر له، وفي رواية: مخافتك يا رب^(٢)، فهذا الرجل كان قد وقع له الشك والجهل في قدرة الله تعالى على إعادة ابن آدم، بعدما أحرق وذري وعلى أنه يعيد الميت ويحشره إذا فعل ذلك، وهذان أصلان عظيمان:

(١) ظاهرة الغلو في الدين، محمد عبد الحكيم حامد ص ٢٦٧.

(٢) البخاري (٦ / ٥١٤، ٥١٥).

- أحدهما: متعلق بالله تعالى، وهو الإيمان بأن الله على كل شيء قدير.

- والثاني: متعلق باليوم الآخر، وهو الإيمان بأن الله يعيد هذا الميت ويجزيه على أعماله.

ومع هذا فلما كان مؤمناً بالله في الجملة، ومؤمناً باليوم الآخر في الجملة وهو أن الله يثيب ويعاقب بعد الموت، قد عمل صالحاً، وهو خوفه من الله أن يعاقبه على ذنوبه، غفر الله له بما كان منه من الإيمان بالله، واليوم الآخر، والعمل الصالح^(١).

وكذلك بلال بن رباح رضي الله عنه، لما باع الصاع بالصاعين أمره النبي ﷺ برده، ولم يرتب على ذلك حكم آكل الربا من التفسيق واللعن والتغليظ لعدم علمه بالتحريم^(٢).

ب - **العمد:** لا بد من توفر شرط العمد، لأن الله تعالى قد رفع الإثم والمؤاخذه عن المخطئ والمتأول، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، فقال سبحانه وتعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقد ثبت عن النبي ﷺ: إن الله تعالى قال قد فعلت، لما دعا النبي ﷺ والمؤمنون بهذا الدعاء^(٣).

وقال ﷺ: إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان. وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية القولية، والمسائل العملية، وما زال السلف يتنازعون في كثير من هذه المسائل، ولم يشهد أحد منهم على أحد، لا بكفر ولا بفسق ولا بمعصية^(٤).

تلك أدلة رفع الإثم والمؤاخذه عن المخطئ والمتأول^(٥).

وإذا كان المسلم متأولاً في القتال أو التكفير لم يكفر بذلك، كما قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - لحاطب بن أبي بلتعة: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «إنه شهد بدرًا. ما يدريك أن الله قد اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم

(١) الفتاوى (١٢ / ٤٩١).

(٢) الفتاوى (٢٠ / ٢٥٣).

(٣) تفسير صحيح ابن كثير (١ / ٣٢٣).

(٤) الفتاوى (٣ / ٢٢٩).

(٥) ظاهرة الغلو في الدين في العصر الحديث ص ٢٧١.

فقد غفرت لكم^(١)، وكذلك ثبت في الصحيحين عن أسامة بن زيد أنه قتل رجلاً بعد ما قال لا إله إلا الله، وعظم النبي ﷺ ذلك لما أخبروه وقال: يا أسامة أقتلته بعدما قال: لا إله إلا الله؟ كرر ذلك عليه حتى قال أسامة: تمنيت أني لم أكن أسلمت يومئذ، ولم يوجب عليه قوداً ولا دية ولا كفارة، لأنه كان متأولاً، ظن جواز قتل ذلك القائل لظنه أنه قالها تَعَوِّذاً^(٢).

ج- الاختيار والقدرة: قال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦]. ففي قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ﴾ فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظهم مكرهاً لما ناله من ضرب وأذى، وقلبه يأبى ما يقول وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله، وقد نزلت هذه الآية في عمار بن ياسر، فقد أخذه المشركون فعذبوه حتى قاربهم في بعض ما أرادوا فشكا ذلك إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئناً بالإيمان، قال النبي ﷺ: إن عادوا فعد»^(٣)، ولهذا اتفق العلماء على أن المكروه على الكفر يجوز له أن يوالي إبقاء لمهجته، ويجوز له أن يأبى كما كان بلال رضي الله عنه يأبى عليهم ذلك والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه، ولو أفضى إلى قتله^(٤). والله سبحانه وتعالى أخبر في غير موضع أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، كقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأعراف: ٤٢]، وأمر بتقواه بقدر الاستطاعة فقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

٥ - موانع التكفير:

إن الحكم على الشخص المعين يتوقف على وجود شروط وانتفاء موانع، ومن موانع التكفير: الخطأ، الجهل، العجز، والإكراه.

(١) البخاري رقم ٣٩٨٣، مسلم رقم ٢٤٩٤.

(٢) ظاهرة الغلو في الدين في العصر الحديث ص ٢٧٢، الحديث صحيح رواه الشيخان.

(٣) مستدرک الحاکم (٢ / ٢٥٧)، نصب الراية للزيلعي (٤ / ١٥٨).

(٤) تفسير ابن كثير (٢ / ٥٨٧، ٥٨٨).

أ - فالخطأ: لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ [الأحزاب: ٥]. ووجود الخطأ من المسلم أحد موانع تكفير المعين، كما أن الله أمر الناس أن يطلبوا الحق على قدر وسعهم وإمكانهم، فإن لم يصيبوا الحق في اجتهادهم، فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها، والواجب في حق المسلم أن يعبد الله بحسب ما توصل إليه اجتهاده، إن كان مؤهلاً للاجتهاد وبذل وسعه في طلب الحق.

إن الأدلة من الكتاب والسنة متضافرة على أن المجتهد المخطئ معذور، كما دل الإجماع والقياس على ذلك^(١).

ب - الجهل: قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

فالجهل أحد موانع تكفير المعين لأن الإيمان متعلق بالعلم، ووجود العلم بالمؤمن به شرط من شروط الإيمان به^(٢).

ج - العجز: قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥]. فأولئك كانوا عاجزين عن إقامة دينهم، فقد سقط ما عجزوا عنه^(٣).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧-٩٩]. فأولئك عسى الله أن يغفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً [النساء: ٩٧-٩٩].

(١) منهج ابن تيمية في مسألة التكفير (١ / ٢٤٩، ٢٥٧).

(٢) المصدر نفسه (١ / ٢٦١).

(٣) الفتاوى (١٩ / ٢٢٠، ٢٢١).

فهذه الآيات في جماعة من المؤمنين كانوا يستخفون بإيمانهم، وهم عاجزون عن الهجرة، فعذرهم الله تعالى^(١).

ومثال آخر على موانع التكفير - العجز - أن النجاشي كان ملك النصارى في الحبشة، فلم يطعه قومه في الدخول في الإسلام، ولم يدخل معه سوى نفر يسير منهم، فلما مات صلى عليه النبي ﷺ بالمدينة، خرج بالمسلمين إلى المصلى، فصفهم صفوفًا، وصلى عليه، وأخبرهم بموته يوم مات فقال: قد توفي اليوم رجل صالح من الحبش فهلما فصلوا عليه^(٢).

وكثير من شرائع الإسلام لم يكن دخل فيها لعجزه عن ذلك، فلم يهاجر، ولم يجاهد، بل قد روي أنه لم يصل الصلوات الخمس، ولا يصوم رمضان، ولا يؤدي الزكاة الشرعية، لأن ذلك يظهر عند قومه فينكرون عليه وهو لا يمكنه مخالفتهم ويعلم قطعًا أنه لم يكن يمكنه أن يحكم بينهم بحكم القرآن، لأن قومه لا يقرونه على ذلك، ولهذا جعل الله هؤلاء من أهل الكتاب الذين آمنوا بالنبي ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ هُمُ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

وقال بعض العلماء في هذه الآية: إنها نزلت في النجاشي، ومنهم من قال: فيه وفي أصحابه^(٣)، وكذلك ما أخبر به عن حال مؤمن آل فرعون مع قوم فرعون، وعن حال امرأة فرعون، وكما كان يوسف الصديق عليه السلام مع أهل مصر، فإنهم كانوا كفارًا ولم يمكنه أن يفعل معهم كل ما يعرفه من دين الإسلام، لأنه دعاهم إلى التوحيد والإيمان فلم يجيبوه^(٤).

إن مَنْ عجز عن أداء ما شرع الله عليه واتفق الله ما استطاع فإنه معذور، غير مؤاخذ على ما تركه.

د - الإكراه: قال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ

(١) الفتاوى (١٩/ ٢٢٠).

(٢) مسلم (٣/ ٥٥).

(٣) فتاوى (١٩/ ٢١٧-٢١٩).

(٤) تفسير الطبري (٤/ ٢١٨-٢١٩).

بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿النحل: ١٠٦﴾ كل ما أدى بشخص لو لم يفعل المأمور به إلى ضرب أو حبس، أو أخذ مال، أو قطع رزق يستحقه أو نحو ذلك^(١) وشروطه أربعة:

- أن يكون فاعله قادرًا على إيقاع ما يهدد به، والمأمور عاجزًا عن الدفع، ولو بالفرار.

- أن يغلب على ظن المكره أنه إذا امتنع أوقع به ما هدهد به.

- أن يكون ما هدهد به فوريًا، أو بعد زمن قريب جدًا، أو جرت العادة أنه لا يخلف ما هدهد به.

- أن لا يظهر من المأمور ما يدل على اختياره^(٢).

٦- ما يمحو الكفر بعد ثبوته على المعين:

التوبة: هي رجوع العبد إلى الله، ومفارقته لصرات المغضوب عليهم والضالين^(٣).

والله سبحانه وتعالى يقبل توبة العبد من جميع الذنوب، الشرك فما دونه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣، ٧٤]. وقال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

والتوبة تمحو جميع السيئات وليس شيء يغفر جميع الذنوب إلا التوبة ومعلوم أن من سب الرسول من الكفار المحاربين، وقال: هو ساحر، أو شاعر أو مجنون، أو مفتر، وتاب، تاب الله عليه، وقد كان طائفة يسبون النبي ﷺ من أهل الحرب، ثم أسلموا وحسن إسلامهم وقبل النبي ﷺ منهم، منهم أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم النبي ﷺ وعبد الله ابن أبي السرح، وكان قد ارتد، وكان يكذب على النبي ﷺ ويقول: أنا كنت

(١) منهج ابن تيمية في مسألة التكفير (١/٢٦٦).

(٢) فتح الباري (١٢/٣١١).

(٣) مدارج السالكين (٢/١٩٩).

أعلمه القرآن، ثم تاب وأسلم وبايعه النبي ﷺ على ذلك^(١)، فالتوبة هي الأمر الوحيد الذي يمحو الله به الكفر بعد ثبوته، وقد انعقد الإجماع على ذلك^(٢).

ثالثاً: الأمثال القرآنية للكافرين:

١ - السراب وأعمال الكفار: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

يبين الله سبحانه وتعالى أن مثل أعمال الذين كفروا بالله مثل سراب بأرض منبسطة يرى وسط النهار وحين اشتداد الحر، فيظنه العطشان ماء، فإذا أتاه ملتمساً الشراب لإزالة عطشه لم يجد السراب شيئاً، فكذلك الكافرون في غرور من أفعالهم التي عملوها وهم يحسبون أنها تنجيهم عند الله من الهلاك كما حسب العطشان السراب ماء، فإذا صار الكافر إلى الله واحتاج لعمله لم ينفعه وجازاه الله الجزاء الذي يستحقه^(٣).

وتلاحظ خلال المثل صورة السراب، ثم صورة الظامئ، الذي ظنه ماء، ثم خيبته عند وصوله إليه، وحذف ما عدا ذلك؛ لأن الخيال يتم رسمه وفي المثل له لم يذكر إلا عمل الذين كفروا وطُوي ما عدا ذلك لأن الفكر قادر على أن يستدعيه وهذا من بلاغة القرآن^(٤).

٢ - ظلمات الكفر: قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]. هذه الآية مثل آخر لأعمال الكفار، إلا أن المثل الأول في انخداع الكافر بعمله في الدنيا وغروره به، وهذا المثل لأعمال الكفار في أنها عملت على خطأ وفساد وضلال وحيرة وعلى غير هدى، فهي في ذلك كمثل ظلمات في بحر عميق جداً كثير الماء، وفوق هذا الموج موج آخر، وفوقها سحب متراكم، فاجتمعت

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٩١).

(٢) منهج ابن تيمية في مسألة التكفير (١/ ٢٧٣).

(٣) الشرك في القديم والحديث (٢/ ١٣٨٢).

(٤) أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع، عبد الرحمن حبنكة ص ١٣٣.

عدة ظلمات، وهكذا عمل الكافر ظلمات في ظلمات^(١).

فهذا المثل يصور الحالة النفسية والفكرية والقلبية للذين كفروا بعد أن تركوا نور الهداية الربانية، إنهم يطلبون سعادتهم في الظلمات، فقلوبهم مظلمة بالكفر، ونفوسهم تائهة في بحر من ظلمات الأهواء والشهوات، وأفكارهم تسبح في ظلمات أسباب لذات الدنيا، وإرادتهم تحت كل هذه الظلمات، فمثلهم كمن في ظلمات قاع بحر عميق، فوقه أمواج في عمق الظلمة، فوقها أمواج في السطح تُضاعف الظلمة، فوقها سحب يزيد الظلام ظلامًا، ظلمات بعضها فوق بعض^(٢).

إن مثل الظلمات في سورة «النور» دل على حقائق علمية تتصل بالعلوم الدنيوية المادية التطبيقية أو النظرية، وإن هذه الحقائق تنقسم ثلاثة أقسام:

- القسم الأول: دلالة المثل على معجزة علمية للنبي ﷺ تتمثل في الإخبار بوجود أمواج في باطن البحار العميقة اللجية «المحيطات» والتي لم تكن معلومة في ذلك الوقت، بل لم تكن بمقدور البشر اكتشافها لكونها على عمق لا يصله إلا الغواصات أو الغواصون المزودون بالأكسجين.

- القسم الثاني: الإخبار عن حقائق علمية في العلوم المادية الدنيوية بما يطابق ما ثبت عند المتخصصين فيها، وقد اشتمل المثل على فائدتين من هذا القسم، هما:

أولاً: إفادة المثل أن أعماق البحار العميقة مظلمة ظلمة شديدة مع بيان سبب ذلك، وهو وجود حُجُب حجبت الضوء هي عبارة عن أوساط شفافه متعددة أسهمت مجتمعة في منع الضوء عن تلك الأماكن وتسببت في ظلمتها واتفاق ذلك مع ما تقرر في علم البحار، وعلم الضوء.

ثانيًا: دلالة المثل على التفسير العلمي للرؤية وأنه يشترط له وصول الضوء من مصدر مضيء إلى الجسم المرئي، وإذا انعدم الضوء ولم يصل منه شيء إلى الجسم فإنه يظلم ولا يُرى، واتفاقه مع التفسير الصحيح المتقرر عند المتخصصين في ذلك الشأن، كما تضمن

(١) الشرك في القديم والحديث (٢/ ١٣٨٣).

(٢) أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع ص ١٣٣.

المثل - أيضًا - إبطال التفسير القديم القائم على أن سبب الرؤية خروج أشعة من العين تسقط على الأجسام فتحدث رؤيتها.

القسم الثالث: إفادة المثل حقائق علمية ثابتة في نفسها وإن لم تكن مسلمة عند كل المشتغلين بتلك العلوم، وذلك في الأمور العقلية التي تبحث عادة فيما يسمى بعلم النفس والسلوك والاجتماع.

وقد دل المثل على حقيقتين من هذا القسم، هما:

أولاً: حقيقة أن الكفار يتقبلون في ظلمات حالكة وضلالات لا ينفكون عنها.

ثانياً: حقيقة أن الكفار في خوف وقلق وحيرة دائمة^(١).

٣- الرماد وأعمال الكفار: قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [ابراهيم: ١٨]، شبه الله تعالى أعمال الكفار في بطلانها وعدم الانتفاع بها برماد مرت عليه ريح شديدة في يوم عاصف، فشبه سبحانه أعمالهم في حبوطها وذهابها باطلاً كالهباء المنتثر لكونها على غير أساس من الإيمان والإحسان وكونها لغير الله عز وجل وعلى غير أمره، برماد طيرته الريح العاصف فلا يقدر صاحبه على شيء منه وقت شدة حاجته إليه، فلذلك قال تعالى: ﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ لا يقدر يوم القيامة مما كسبوا من أعمالهم على شيء فلا يرون له أثراً من ثواب ولا فائدة نافعة.

فإن الله لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه موافقاً لشرعه... وفي تشبيهه بالرماد سر بديع، وذلك للتشابه الذي بين أعمالهم وبين الرماد في إحراق النار وإذهابها لأصل هذا وهذا، فكانت الأعمال التي لغير الله وعلى غير مراده طعمة للنار وبها تسعر النار على أصحابها، وينشئ الله سبحانه لهم من أعمالهم الباطلة ناراً وعذاباً كما ينشئ لأهل الأعمال الموافقة لأمره ونهيه التي هي خالصة لوجهه من أعمالهم نعيماً وروحاً، فأثرت النار في أعمال أولئك حتى جعلتها رماداً، فهم وأعمالهم وما يعبدون من دون الله وقود النار^(٢).

(١) الأمثال القرآنية (٢/ ٧٥٥) د. عبد الله جربوع.

(٢) إعلام الموقعين (١/ ١٧٠).

٤ - نفقة الكفار والريح الشديدة: قال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧]. شبه الله سبحانه ما ينفق الكافر ويتصدق به على وجه القرية إلى الله هو مشرك بالله وجاحد به ومكذب لرسله وأن ذلك غير نافعه وأنه مضمحل عند حاجته إليه، ذاهب بعد ما كان يرجو نفعه، كسبه ريح فيها برد شديد وتحمل النار فأصابت زرع قوم أملوا إدراكه ورجوا ريعه لكنهم كفره، فأهلكت الريح التي فيها الصر الزرع ولم ينتفعوا بشيء منه، وكذلك يفعل الله بنفقة الكافر وصدقته ويبطل ثوابها، والمراد بالمثل صنيع الله بالنفقة^(١).

وهذا مثل -أيضاً- ضربه الله تعالى لمن أنفق في غير طاعته ومرضاته، فشبه سبحانه ما ينفقه هؤلاء من أموالهم في المكارم والمفاخر وكسب الثناء وحسن الذكر ولا يبتغون به وجه الله، وما ينفقونه ليصدوا به عن سبيل الله واتباع رسله بالزرع الذي زرعه صاحبه يرجو نفعه وخيره، فأصابته ريح شديدة البرد جداً يحرق بردها ما يمر عليه من الزرع والثمار، فأهلكت ذلك الزرع وأبسته^(٢).

٥ - قلب الموحد وقلب الكافر: قال تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ

وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِداً كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨]. بين سبحانه وتعالى في هذا المثل أن البلد الطيب تربته العذبة مشاربه يخرج نباته إذا أنزل الله الغيث طيباً ثمره في حينه ووقته، والبلد الذي خبث تربته رديئة، ومشاربه مالحة، ويخرج نباته بعسر وشدة، فهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، لأن قلب المؤمن لما دخله القرآن آمن به وثبت الإيمان فيه وفاض بالخير، وقلب الكافر لما دخله القرآن لم يتعلق منه بشيء ينفعه ولم يثبت فيه الإيمان ففاض بالنكد والشر والفساد^(٣).

وقد سمي الله في كتابه المؤمن بالطيب والكافر بالخبث فقال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ

الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ

(١) الشرك في القديم والحديث (٢/ ١٣٨٦).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ١٨٦).

(٣) تفسير الطبري (٨/ ٢١١)، تفسير ابن كثير (٢/ ٢٢٢).

هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ [الأنفال: ٣٧]. فالخبيث في هذه الآية هم الكفار والطيب هم المؤمنون^(١).

هذه بعض الأمثلة القرآنية التي ضربت للكفار، وهذا على سبيل المثال لا الحصر.

رابعاً: النفاق:

لفظ إسلامي لم تكن العرب تعرفه قبل الإسلام بهذا المعنى المخصوص، وحاصل عبارات العلماء في تعريفه يمكن إرجاعها إلى أن النفاق هو: إظهار الإيمان، وإبطان الكفر^(٢).

١- أنواع النفاق: ينقسم النفاق إلى نوعين، نفاق الاعتقاد ونفاق العمل:

أ - نفاق الاعتقاد: وهذا النوع من النفاق الأكبر الذي يخرج صاحبه من ملة الإسلام، ويوجب له الخلود في النار، ويُجرّم عليه دخول الجنة، وذلك لأنه أظهر الإسلام والخير وأبطن الكفر والشر، وهؤلاء هم أشد خطراً وبلاءً على الإسلام، والمسلمين، لأنه يؤمن جانبهم لما ظهر من أمور تدل على إيمانهم ويأتي الخطر كل الخطر من جانبهم، فهم الذين يشيعون الفاحشة في الذين آمنوا وهم الذين يذبذبون الصف المسلم، وغير ذلك ولكن الله كاشف أمرهم، وهو على إذلالهم قدير، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١١﴾

[البقرة: ٨ - ١٠].

ب - النفاق العملي: وهو النفاق الذي لا ينقل صاحبه عن الملة، بل يظل معه مسلماً، ويبقى معه إيمانه، وهذا النفاق العملي هو الاتصاف ببعض أعمال المنافقين التي لا تنقض الإيمان، بل في المعاملات، وذلك مثل الكذب في الحديث، إخلاف الوعد، الغدر عند الخصام، الخيانة عند الائتman، فإنه قد يجتمع في العبد بعض خصال الخير، وبعض خصال الشر، ويستحق من الثواب على قدر ما عنده من خصال الخير ويستحق من العذاب على قدر ما عنده من خصال الشر والنفاق، وكان الصحابة رضوان الله عليهم

(١) تفسير القرطبي (٧/ ٤٠١)، الشوك في القديم والحديث (٢/ ١٣٧٥).

(٢) النفاق.. أثره في حياة الأمة، د. عادل الشدي ص ٢٠.

يخافون النفاق ويحذرون الوقوع فيه والاقتراب منه^(١)، قال ابن أبي مليكة رحمه الله: أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه^(٢).

إن اتهام بعض الصحابة أنفسهم بالنفاق والخوف من الوقوع فيه، يدل على أشياء كثيرة ومعانٍ رفيعة منها:

- مدى حرص الصحابة - رضوان الله عليهم - على إيمانهم وتوحيدهم وحفظ إيمانهم، من أن تشوبه شائبة تعكر صفوه أو تنقص كماله.

- تواضع الصحابة - رضوان الله عليهم - وعدم اغترارهم بأعمالهم.

- ما يجب أن يكون عليه العبد من الخوف والرجاء، فإنه يخاف ربه وأن يقع فيما يغضبه، وفي نفس الوقت يرجو رحمته^(٣).

٢- من أبرز صفات المنافقين:

أ - الإفساد في الأرض بتهديم شريعة الله واتهام المؤمنين بالسفه، قال تعالى في وصف المنافقين: ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ * ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ * ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنْتُمُنَّ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١١ - ١٣].

ب - خداع المؤمنين: قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

ج - الإعراض عن التحاكم إلى شرع الله: قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ * ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦٠، ٦١].

(١) العقيدة الصافية ص ٤١٢.

(٢) المصدر نفسه ص ٤١٣.

(٣) المصدر نفسه ص ٤١٣.

د - الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف: قال تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

هـ - اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين: قال الله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَتُهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾^(١) [النساء: ١٣٨، ١٣٩].

هذه أبرز صفات المنافقين وإلا التي ذكرت في القرآن الكريم كثيرة.

خامساً: الردّة:

هي رجوع المسلم العاقل البالغ عن الإسلام إلى الكفر، مختاراً غير مكره ويستوي فيه الذكر والأنثى^(٢).

١ - أنواع الردّة:

أ - الارتداد بالقول: كسب الله تعالى، والنطق بقول يكفر به.

ب - الارتداد بالفعل: كالسجود للأصنام والكواكب ونحوها، أو إذا أتى بفعل صريح، كالاستهزاء بالدين، أو امتهان القرآن، أو وضعه في القاذورات.

ج - الارتداد بالاعتقاد: كاعتقاد الشريك لله سبحانه وتعالى أو اعتقاد حلّ شيء من المحرمات المجمع عليها إجماعاً قطعياً.

د - الارتداد بالشك: كما لو شك في شيء من واجبات الدين، كالصلاة أو الصيام أو الزكاة أو يشك في تحريم الشرك، أو شيء من المحرمات المعلومة من الدين بالضرورة، مثل الزنا والخمر، أو شك في رسالة النبي ﷺ أو غيره من الأنبياء أو في صدقه، أو في دين الإسلام، أو في صلاحيته لهذا الزمان أو غيره من الأزمنة^(٣).

(١) الإبان للزنداني ومجموعة من العلماء ص ١٥٣، ١٥٤.

(٢) العقيدة الصافية ص ٤١٨.

(٣) العقيدة الصافية ص ٤١٨.

٢- الأحكام التي تترتب على الارتداد:

- أ- استتابة المرتد، فإن تاب ورجع إلى الإسلام في خلال ثلاثة أيام قبل منه ذلك.
- ب- إذا أبى أن يتوب وجب على القاضي الأمر بقتله، لقول النبي ﷺ: من بدل دينه فاقتلوه^(١).

ج- يُمنع من التصرف في ماله في مدة استتابته، فإن أسلم فهو له وإلا صار فيئاً لبيت المال من حين قتله أو موته على الردة، وقيل: من حين ارتداده يصرف في مصالح المسلمين.

د- انقطاع التوارث بينه وبين أقاربه فلا يرثهم ولا يرثونه.

هـ- إذا مات أو قتل على رده فإنه لا يُغسَل ولا يُصلى عليه ولا يُدفن في مقابر المسلمين، وإنما يدفن في مقابر الكفار، أو يوارى في التراب في أماكن غير مقابر المسلمين، هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فإنها تستوجب العذاب الشديد والخلود في النار^(٢)، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

٣- الأشياء التي يصير بها المسلم مرتدًا:

- الشرك بالله تعالى، وهو أن يجعل لله ندًّا من مخلوقاته يُدعى كما يُدعى الله، ويخاف كما يخاف الله، ويتوكل عليه كما يتوكل على الله أو يُصرف له شيء من العبادات، فإذا فعل ذلك كفر، وخرج من الإسلام، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَلَهُ نِعْمَةٌ مِنْهُ نَبِيََّ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

- إظهار الطاعة والموافقة للمشركين على دينهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ * فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمْ

(١) البخاري، ك الجهاد، باب لا يعذب بعذاب الله رقم ٣٠١٧.

(٢) العقيدة الصافية ص ٤١٩.

الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٩﴾ [محمد: ٢٨، ٢٩].

- موالاة المشركين والكافرين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِّنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

وقال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ [آل عمران: ٢٨].

- الجلوس عند المشركين في مجالس شركهم من غير إنكار، قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَتَعَدُّوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

- الاستهزاء بالله أو بكتابه أو برسوله، قال تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبُ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

- ظهور الكراهية والغضب عند الدعوة إلى الله وتلاوة كتابه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْبِيَكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَُم النَّارِ وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيُسَّ الْمُصِيرُ﴾ [الحج: ٧٢].

- كراهية ما أنزل الله على رسوله من الكتاب والحكمة، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٩].

- جحد الناس شيئاً من كتاب الله ولو آية، أو بعضها أو شيئاً عن النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

- عدم الإقرار بما دلت عليه آيات القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة، قال تعالى:

﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُزُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ [غافر: ٤].

- الإعراض عن تعلم دين الله والغفلة عن ذلك، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا

أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣].

- كراهية إقامة الدين والاجتماع عليه، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ

نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

- السحر، تعلمه وتعليمه والعمل بموجبه، قال تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى

يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

- إنكار البعث، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبْ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ

جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الرعد: ٥].

- التحاكم إلى غير حكم الله عز وجل، قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ

أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

سادساً: الفسق:

هو الخروج عن طاعة الله سواء كان خروجاً كلياً أو جزئياً.

وينقسم إلى نوعين:

١- فسق ينقل عن الملة وهو الكفر، فهو فسق كلي، خرج صاحبه عن طاعة الله

وعبوديته، ولقد سمى الله تعالى الكفر المخرج عن الملة الموجب لصاحبه النار، سمّاه فسقاً،

كما قال تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠]، وسمى الله تعالى أصحاب النار فساقاً،

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ [السجدة: ٢٠].

٢- وهو الفسق الذي لا ينقل من الملة وهو فسق جزئي وهو يطلق على بعض

المعاصي وعلى بعض العصاة، وهو لا يخرج من الملة وصاحبه مازال في حظيرة الإسلام ولقد سمى الله المؤمنين الذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بالشهداء بأنهم فاسقون، وهم مازالوا في حظيرة الإسلام يتمتعون بعتيدة المسلمين، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤].

سابعاً: المعاصي: الكبائر والصغائر:

١ - المعاصي: هي ترك المأمورات وفعل المحظورات، أو ترك ما أوجب وفرض في كتابه أو على لسان رسوله، وارتكاب ما نهى الله عنه أو رسوله ﷺ من الأقوال والأعمال الظاهرة أو الباطنة^(١).

ولفظ المعصية والفسوق والكفر إذا اطلقت المعصية لله ورسوله، دخل فيها الكفر والفسوق كقوله: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَادٌ جَحْدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: ٥٩]. فهذه معصية لجنس الرسل^(٢).

وقد جاء معنى العصيان بالفاظ كثيرة في القرآن الكريم:

- الذنب: قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٠].
- الخطيئة: قال تعالى عن إخوة يوسف: ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩٧].
- السيئة: قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤].
- الحُوب: قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢].
- الإثم: قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ﴾ [الإعراف: ٣٣].

- الفسوق والعصيان: قال تعالى: ﴿وَكُرِّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾

[الحجرات: ٧].

(١) الكبائر والصغائر، حامد محمد المصلح ص ١٩.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠.

- الفساد: قال جلّ وعلا: ﴿إِنَّهَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: ٣٣].

- العتو: قال تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الإعراف: ١٦٦].

٢- أنواع المعاصي: تنقسم المعاصي إلى كبائر وصغائر حسب تقسيمها في الكتاب والسنة للأدلة الآتية، أما في الكتاب فمنها قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجَتَبَوُا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، ففي هذه الآية بيان أن الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر^(١).

وقوله جلّ جلاله: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢]، في الآية استثناء منقطع، لأن اللمم من صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال فهو استثناء من عامة الكبائر، وقوله تعالى: ﴿وَكُرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧]، فجعلها مراتب ثلاثاً وسمّى أولها كفراً، وثانيها فسقاً، وثالثها عصياناً^(٢).

وقوله تعالى: ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩]، وهذا نص صريح في أن ما يعمل الإنسان يدون عليه صغيراً كان أو كبيراً^(٣).

وأما في السنة فقد جاءت أحاديث كثيرة منها:

- عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قال: قلت له: إن ذلك لعظيم. قال قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك. قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك^(٤).

- وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثاً: الإشرak بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور أو قول الزور، وكان رسول الله متكثراً

(١) الكبائر والصغائر ص ٢٣.

(٢) الكبائر والصغائر ص ٢٣.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٣.

(٤) مسلم رقم ٨٦.

فجلس فما زال يكررها حتى قلنا: ليتة سكت^(١).

- وقال رسول الله ﷺ: الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إن اجتنبت الكبائر^(٢). فهذه الأدلة وغيرها كثير تدل دلالة صريحة على أن المعاصي منها ما هو كبائر بل وأكبر الكبائر، كما جاء في الأحاديث السابقة.

٣- تعريف الكبيرة: كل ذنب ختمه الله تعالى بنار أو غضب، أو لعنة أو عذاب^(٣)، وقيل: كل ما أوجب فيه حد أو ورد فيه توعّد بالنار أو جاءت فيه لعنة^(٤). وقال بعض أهل العلم وغيرهم: أنه يمكن أن تعرّف الكبائر بالعد بدلاً من الحد، ومنهم من قال عن الكبائر: هي إلى السبعين أقرب منها إلى السبع^(٥). وذكر الهيثمي عن العلائي أنه صنف جزءاً جمع فيه ما نص عليه النبي ﷺ أنه كبيرة وهي: الشرك، والقتل، والزنا، وأفحشه بحليلة الجار، والفرار من الزحف، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، والسحر، وشهادة الزور، واليمين الغموس، والنميمة، والسرقة، وشرب الخمر، واستحلال بيت الله الحرام، ونكث الصفة، وترك السنة، والتعرب بعد الهجرة، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، ومنع ابن السبيل من فضل الماء، وعدم التنزه من البول، وعقوق الوالدين والتسبب إلى شتمهما، والإضرار في الوصية، فهذه الخمس والعشرون هي مجموع ما جاء في الأحاديث منصوفاً عليه أنه كبيرة^(٦).

إن ما ذكره صحيح من حيث كونها كبيرة منصوفاً عليها والأدلة عليها في مظانها، ولكن ليس هذا مجموع ما جاء في الأحاديث الصحيحة المنصوص عليها بل قد ورد غيرها ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر الآتي:

كالكذب وقتل نفسه والمكث من اللعان بغير حق، تشبه الرجال بالنساء أو العكس، سوء الجوار، الخيانة، الرشوة، تغيير منار الأرض... إلخ.

(١) مسلم، ك الإيمان باب الكبائر (٩١/١) رقم ٨٧.

(٢) مسلم، ك الطهارة (٢٠٩/١) رقم ٢٣٣.

(٣) الزواجر لابن حجر (٩/١).

(٤) الكبائر والصغائر ص ٢٧.

(٥) تفسير الطبري (٤١/١).

(٦) الكبائر والصغائر ص ٢٨.

الخلاصة، إن الكبائر غير منحصرة بعد ولا حد منضبط بل؛ إنها كل معصية دل الدليل على توكيد التحريم وتغليظه، سواء توعدها عليها بلعن أو غضب أو نار أو عذاب أو حد أو غير ذلك، مما عظم ضررها في الوجود أو اقترن بارتكابها ما تعظم به^(١).

٤- تعريف الصغائر: الصغيرة ما ليس فيها حد في الدنيا ولا وعيد في الآخرة^(٢).

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢]، واللمم: ما كان بين الحدين لم يبلغ حد الدنيا ولا حد الآخرة، موجبة قد أوجب الله لأهلها النار، أو فاحشة يقام عليها الحد في الدنيا^(٣)، والصغيرة مع الإصرار تشكل خطراً على صاحبها وربما تهلكه، قال رسول الله ﷺ: إياكم ومحقرات الذنوب فإنها مثل محقرات الذنوب، كمثّل قوم نزلوا بطن واد فجاء ذا يعود وجاء ذا يعود حتى حملوا ما أنضجوا به خبزاً، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه^(٤).

ولأن السيئة وإن صغرت تجر أختها حتى توقع فاعلها في ما هو أكبر من الكبائر، ولهذا دفع السيئة بالحسنة لا بالسيئة، قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، وقال ﷺ: «اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها»^(٥).

فإن العبد إذا وقع في سيئة عليه أن يعمل حسنة تمحو تلك السيئة التي عملها فيبدل مكان السوء إحساناً ومكان السيئة الطاعة، فإنه إذا وُفّق لفعل الحسنات ألفها وأحبها واطمئن قلبه لها فلا يفارقها أبداً حتى لو أجبر على سيئة لم يأنس بها فإن قلبه يؤنبه وإيمانه ينهيه عنها فهو يزداد كل يوم خيراً وعن الشر بعداً^(٦).

٥- حكم مرتكب الكبيرة: سلك الصحابة والتابعون لهم بإحسان منهجاً وسطاً في

شأن مرتكب الكبيرة، فلم يكفروه ولم يقولوا بأنه كامل الإيمان، بل إنه مؤمن بإيمانه فاسق

(١) الكبائر والصغائر ص ٢٩ إلى ٣٣.

(٢) أقوال التابعين في مسائل التوحيد والإيمان (٣/ ١٣٠٧).

(٣) المصدر نفسه (٣/ ١٣٠٧).

(٤) السلسلة الصحيحة للألباني رقم ٣٨٩.

(٥) صحيح الجامع للألباني رقم ٩٦.

(٦) الكبائر والصغائر ص ٣٥.

بكبيرته، أو هو مؤمن ناقص الإيمان، أو مؤمن عاص، وهذا الحكم عليه إنما هو في الدنيا، أما في الآخرة فهو تحت مشيئة الله تعالى، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له، وبهذا الحكم عليه جمعوا بين النصوص الشرعية التي تصف أهل الإيمان والنصوص التي لم تخرج الفاسق من دائرة الإسلام^(١).

إن فساق الملة ليسوا مخلدين في النار وليسوا كاملين في الدين والإيمان والطاعة بل لهم حسنات وسيئات، يستحقون بهذا العقاب وبهذا الثواب^(٢).

وقد اتفق الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين على أنه لا يخلد في النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان، واتفقوا أيضًا على أن نبينا ﷺ يشفع فيمن يأذن الله له بالشفاعة فيه من أهل الكبائر من أمته^(٣).

وقد استدل علماء الأمة الإسلامية على قولهم في مرتكب الكبيرة بالعديد من الأدلة من الكتاب والسنة منها:

أ - قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة ففي مشيئة الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه، ما لم تكن كبيرته شرًا بالله^(٤).

ب - قال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفَاتِلُوا آلِي نَفِيٍّ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [النساء: ٩٠]، إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ [الحجرات: ١٠، ٩].

رغم أن القتال بين المسلمين من الكبائر لم ينتف عن المتقاتلين اسم الإيمان ولم يخرجوا به عن أهله^(٥)، وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية على أن المعصية وإن عظمت لا تخرج

(١) أقوال التابعين في مسائل التوحيد والإيمان، عبد العزيز عبد الله (٣/ ١٣١٥).

(٢) المصدر نفسه (٣/ ١٣١٥)، الفتاوى (٦٧٩/ ٧).

(٣) الإيمان ص ٢٠٩ لابن تيمية.

(٤) تفسير الطبري (٤/ ١٢٩).

(٥) دراسة عن الفرق وتاريخ المسلمين د. أحمد جلي ص ١٢٧.

من الإيمان^(١).

ج - قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ١٧٨]، مع أن الله عز وجل أوعد القاتل بالخلود في النار عقوبة له على جريمته قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]. ومع ذلك لم ينف عن هذا القاتل العاصي صفة الإيمان فهو أخ لأولياء المقتول وهم مؤمنون: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ والمراد بالأخوة إخوة الدين^(٢)، والقاتل جزاؤه جهنم، فإن شاء الله غفر له^(٣).

د - ولم ينف القرآن الكريم صفة الإيمان عمن أكل أموال الناس بالباطل، أو أكل الربا مادام غير مستحل لذلك فيقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨].

هـ - وورد أيضاً من الأحاديث الصحيحة التي تنص على أن المعاصي لا تخرج عن الملة، ومن ذلك: عن أبي ذر رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ وعليه ثوب أبيض، وهو نائم، ثم أتيتيه وقد استيقظ، فقال: «ما من عبد قال: لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك دخل الجنة. قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق، على رغم أنف أبي ذر»^(٤). ففي قوله: وإن زنى وإن سرق، دليل على أن أصحاب الكبائر لا يقطع لهم بالنار وأنهم إن دخلوها أخرجوا منها، وختم لهم بالخلود في الجنة^(٥).

- وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله في مجلس، فقال:

(١) علي بن أبي طالب للصَّلَابي ص ٣٨٣.

(٢) دراسة عن الفرق وتاريخ المسلمين ص ١٢٧.

(٣) سنن البيهقي (١٦/٨).

(٤) البخاري رقم ٥٨٢٧، مسلم رقم ٩٤.

(٥) شرح صحيح مسلم (٩٧/٢).

«تبايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً، ولا تزنوا ولا تسرقوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب شيئاً من ذلك فعوقب به، فهو كفارة له، ومن أصاب شيئاً من ذلك فستره الله عليه، فأمره إلى الله، إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه»^(١).

و- ومما يستدل به: إجماع الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان على أن صاحب الكبيرة مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته وهوتحت مشيئة الله تعالى في الآخرة^(٢).

(١) البخاري رقم ١٨ ، مسلم رقم ١٧٠٩ .

(٢) أقوال التابعين في مسائل التوحيد والإيمان (٣/ ١٣١٨) .

الخاتمة

وبعد: فهذا ما يسره الله لي من الحديث عن الإيمان بالله عز وجل في هذا الكتاب، وقد سميته «الإيمان بالله جلّ جلاله»، فما كان فيه من صواب فهو محض فضل الله عليّ، فله الحمد والمنة، وما كان فيه من خطأ فأستغفر الله تعالى وأتوب إليه، والله ورسوله بريء منه، وحسي أني كنت حريصاً ألا أقع في الخطأ، وعسى ألا أحرم من الأجر.

وأدعو الله أن ينفع بهذا الكتاب بُني الإنسان أينما وجد، ويكون سبباً في زيادة إيمانه وهدايته أو تعليمه أو تذكيره، وأن يذكرني من يقرؤه من إخواني المسلمين في دعائه، فإن دعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب مستجابة إن شاء الله تعالى، وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

ويقول الشاعر:

مقر بالذي قد كان مني	إلهي لا تعذبني فإني
وعفوك إن عفوت وحسن ظني	ومالي حيلة إلا رجائي
وأنت عليّ ذو فضل ومنّ	فكم من زلة لي في البرايا
عضضت أنامي وقرعت سني	إذا فكّرت في ندمي عليها
لشرّ الناس إن لم تعف عني	يظن الناس بي خيراً وإني

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك
